إنتاج الزرابي في منطقة زمور: المؤهلات والعوائق*

علي بنطالب، حمو بلغازي
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

Dans la région des Zemmour, comme partout ailleurs en milieux amazighes, la production du tapis relève de l'activité féminine. La femme zemmourie a pu (su) garder, développer et transmettre le savoir-faire tapissier. De ce produit de fabrication ancestral, elle a tiré divers avantages et fait une source de revenu complémentaire ou principale pour la famille. Ce qui n'est plus le cas aujourd'hui. Des facteurs endogènes et exogènes découragent la production du tapis et le savoir-faire y afférent. Les fabricantes et les vendeuses (ou vendeurs) du tapis sont conscients des obstacles qui freinent son essor, mais ils se sentent désarmés devant leur ampleur. Toutefois, avec des moyens de bord et de différentes manières, certaines associations tentent d'éviter à l'art tapissier de se fragiliser davantage.

تقديم

تحتل قبائل زمور رقعة جغرافية شاسعة، حيث تفصلها مسافة قليلة عن مدينتي سلا والرباط غربا ومكناس شرقا. كما أنها تمتد شمالا إلى مشارف مدينة سيدي سليمان حيث قبائل بني احسن. تستقر في هذه الرقعة الشاسعة قبائل أمازيغية متعددة[1]. ففي الجنوب نجد قبائل أيت حكم، وحودرّان، وأيت جبل الدوم. وفي الوسط تتمركز قبائل أيت أوريبل، وأيت بويحيى، وحجامة، وأيت بلقاسم، وأيت واحي، وأيت عبو، وقبليين. وفي الشمال تستقر قبائل أيت يدين، ومصغرة، وخزازنة، ومزورفة، والقطبيين، وأيت علي ولحسن في الشمال الغربي.

* اعتمدنا في إنجاز هذا المقال أساسا على أبحاث ميدانية خلال شهر أكتوبر من العام 2011. استندت بشكل أساسي على الملاحظة المباشرة، واستجواب العديد من الفاعلين المحليين في مجال الزرابي بزمور. الأمر الذي ساعدنا بشكل كبير على دراسة واقع وآفاق إنتاج الزرابي بالمنطقة.

[1] لا تستعمل الوثائق المخزنية مصطلح قبائل زمور، بل تعتبر أن هذا التجمع القبلي الواسع يشكل قبيلة واحدة، وهي قبيلة زمور. انظر:

– رحمة بورقية: الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقات الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت، 1991. ص:15–19.

– أحمد بوبية: قبائل زمور والحركة الوطنية، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2003. ص:30–31.

كانت قبائل زمور تعتمد في نمط عيشها على التنقل والترحال بين السهول والجبال والمناطق الغابوية. وكانت تعتمد على الزراعة بشكل محدود. ثم إن سكانها كانوا يدخلون بين الفينة والأخرى في صراع مع المخزن، وفي مواجهة مع قبائل مجاورة مثل قبائل بني احسن وگروان. وكانوا يفضلون التعاطي لتربية الماشية، وهذا ما جعلهم يسكنون الخيام ويكونون جماعات غير مستقرة في مجالات محددة (Querleux, 1915 : 125-126).

وقد أدى تدخل الدولة، الذي بدأ مع تشكل الإدارة الاستعمارية، إلى الحد من حركة القبائل التي أصبحت ملزمة بالاستقرار في مجال محدود، وإلى الحد من الصراعات القبلية. وفي الوقت نفسه تمكن المخزن والمستعمر، تدريجيا، من خلق نوع من الاستقرار داخل قبائل زمور.

يشكل النشاط الفلاحي، حاليا، المصدر الأساس لعيش ساكنة زمور، بينما تشكل الصناعة التقليدية، مثل النحت على الخشب (العرعار)، وإنتاج الزرابي بمختلف أنواعها موردا مكملا. ونظرا لخبرة الحرفيين ومهارتهم في هذه الميادين، غزت منتوجاتهم الأسواق الوطنية والدولية، خاصة الزرابي. غير أن إنتاجها أصبح يعاني من مشاكل كبيرة (التسويق، والمنافسة، وفقدان الخبرة...)، الأمر الذي يهدد ساكنة المنطقة اقتصاديا واجتماعيا، مما دفع بعض فعاليات المجتمع المدني إلى التدخل في هذا الميدان.

يهدف هذا المقال، انطلاقا من أعمال ميدانية، إلى تحري خصوصيات الزربية الزمورية، والوقوف عند أهمية الخبرات والمعارف المحلية المتصلة بها، واستقراء العوامل المؤثرة فيها، والدور الذي تلعبه في مجال التنمية المحلية، والصعوبات التي تواجه استمرارية وانتقال الخبرات والمعارف والمهارات المرتبطة بها.

1. خصوصيات الزربية الزمورية

1.1. خبرات ومعارف نسائية متميزة

تتعدد أنواع الزرابي بالمغرب (Damgaard, 2008)، وتشتهر بعض المناطق بإنتاج أنواع معينة منها، سواء من حيث لون الأرضية أو الرموز التعبيرية التي تتضمنها. نذكر من هذه المناطق الأطلسين الكبير والمتوسط، وحوز مراكش، ومديونة، والرباط (Flint, 2008 : 13,19-25).

إذا كانت الزرابي في الأصل إنتاجا نفعيا، فإنها لا تخلو من تعبير فني غني في زخرفته، فالرسوم والأشكال تظهر فيها تارة بسيطة أو ساذجة، وتارة أخرى عالية التركيب، فشكل المعين مثلا يميز جل زرابي الأطلس المتوسط، وكثافة استعماله تختلف من قبيلة إلى أخرى. وتزين بعض زرابي الأطلس الكبير برموز على شكل مثلثات أو مربعات أو معينات منفردة أو مندمجة. وقد تحتوي هذه الرسوم على رموز تشخص أشكالا إنسانية أو حيوانية (Amahan, 2011 : 120-146).

تنتج قبائل زمور أنواعا مختلفة من الزرابي تجاوزت شهرتها الحدود الوطنية، نظرا لأصالتها وغنى رموزها التعبيرية وجودتها. وتتسم بخصوصيات تميزها عن باقي أنواع الزرابي المغربية.

الصورة رقم 1: بعض مميزات الزربية الزمورية من حيث الرموز التعبيرية[2]

تعرف الزربية الزمورية بأرضيتها الحمراء المزخرفة بعناصر تعبيرية دقيقة ومنتظمة. ويتم إنجاز ألوان هذه الزربية وتنسيقها بعناية كبيرة. وتنفرد بالأهمية المعطاة لبعض الرموز التعبيرية المحلية، حيث تزين الزربية عادة برصيعات متعددة تملأ جل الأرضية إلا الشريط الضيق الذي يشكل إطارها. وقد حافظت زرابي زمور على طابعها الأصلي الذي تختلف تقنية إنتاجه وزخرفته من قبيلة إلى أخرى. وتتوفر على تشكيلات هندسية تماثلية مزدانة بألوان مختلفة، جميلة وحية، لا تكتنفها أية رتابة. وتتشبث نساء زمور بالرسوم والأشكال المحلية المميزة لزرابي المنطقة، رغم التحولات والتطورات التي عرفها الطلب[3]. فتردد الحرفيات بعفوية: "**أياذ إلاّ زيك** ⵔⴰⵢ ⵉⵏⵓ ⵣⵉⵔ" (الرموز الحالية موجودة منذ أمد بعيد)[4]، وما دونه: **''ماشي وينخ** ⵍⵍⵉⵖ ⵙⵓⵎⵙ'' (ليست زرابينا)[5]. ويحاولن تكييف إنتاجها مع حاجيات السوق: **''بنادم لايتكَا مايدا سيتمشان كَ السوق** ⵏⵏⵓ ⵜⵎⴰⵙⵙ''

[2] أخذت جميع الصور الواردة في المقال بعدسة الباحثين علي بنطالب وحمو بلغازي، خلال التحريات الميدانية بمنطقة زمور شهر أكتوبر 2011.

[3] فيما يخص "ألقيض" ⵜⵉⵎⵣⵉⵔⵜ، جمع "إلقيضن" ⵜⵉⵎⵣⵉⵔⵜⵉⵏ، الذي يميز الرموز التعبيرية لزرابي زمور فهو تقريبا نفسه، لم يحدث فيه تغيير كبير. حيث بقيت هذه الرموز محافظة على أصالتها. (المستجوب السيد موحى).

[4] المستجوبة السيدة مودى.

[5] حسب المستجوبة، السيدة عائشة، فقد كان يستعمل اللون الأخضر، لكن تم التخلي عنه نظرا لعدم الإقبال عليه.

ⵉⵣⵔⵉ ⵏ ⵓⵔⵉⵖ ⵓⵔ ⵉⵣ ⵍ ⵓⵙ ⵉⵜⵜⵙⵎⵔⵙⴰⵏ ⵖ ⵙⵙⵓⵇ"، (ينتج الإنسان ما يحظى بالإقبال في السوق)[6].

يمكن التمييز عموما بين صنفين كبيرين من الأنسجة: الزربية والحنبل. ينسجان في أحجام مختلفة، ويحملان أشكالا متنوعة من الرموز التعبيرية. وتشتهر قبيلة أيت عبو أساسا بإنتاج الحنبل الزموري. وكانت فخذة أيت بوهو من قبيلة أيت أورييل تعرف بإنتاج أنواع جيدة من الحنابل، لكن اهتمامها به تراجع، على عكس قبائل أيت يدين وأيت واحي ومصغرة.

تتعدد أيضا أسماء منتوج الزرابي بالمنطقة، حسب المواد المكونة له والغرض الذي نسج من أجله. وتنتج نساء المنطقة أيضا أنواعا جيدة من الحصائر "إكَرثال ⵉⴽⵔⵜⵍ"، المصنوعة من الدوم "ثيگزذمث ⵜⵉⴳⵣⵣⵎⵜ"، والمزينة بخيوط الصوف الملون، على الرغم من تراجع الإقبال عليها بسبب منافسة حصائر البلاستيك[7]. كما تنسج أنواع جيدة من الخيام المخصصة أساسا لبعض الحفلات والمواسم المحلية، بعد أن تم التخلي عنها في مجال السكن منذ حوالي نصف قرن.

الصورة رقم 2: زربية زمورية من الحجم المتوسط

[6] المستجوبة السيدة مودى.
[7] المستجوبة السيدة يامنة.

تنسج مختلف أنواع الزرابي في منطقة زمور إما للاستعمال المحلي أو من أجل التسويق الخارجي. والملاحظ أن الإقبال على الزربية الزمورية يزداد أثناء حفلات الزفاف والمواسم المحلية، حيث تزين جدران وواجهات محلات الأعراس بأنواع مختلفة من الحنابل. ويتم الشيء نفسه في المواسم المحلية حيث تزين الخيام بزرابي جميلة الشكل تؤثث الفضاء وتليق بالمناسبة. كما يكثر هذا الإقبال خلال فترات تزايد عدد السياح بالمغرب[8].

الصورة رقم 3: بعض أنواع الزرابي بمنطقة زمور

تنتج نساء زمور الزرابي المحلية، غير أن بعض الجمعيات تشجع النساء المتعاملات معها على إنتاج أنواع من زرابي مناطق أخرى استجابة لطلب بعض ساكنة زمور من أصول هذه المناطق، فجمعية "تاگمات للتنمية والتضامن" مثلا قامت بإنتاج بعض الزرابي الصحراوية تلبية لطلب أحد ساكنة الصحراء.

وقد أدى تطور الرموز المستعملة في هذا المجال إلى إنتاج زرابي تحمل كلمات وجملا مكتوبة بالحرف الأمازيغي "تيفيناغ ⵜⵉⴼⵉⵏⴰⵖ". ويتم إنجازها أساسا بطلب من بعض الجمعيات العاملة في مجال النهوض بالثقافة الأمازيغية. وتبين بعض النماذج قدرة الزموريات على نسج حروف تيفيناغ بشكل مضبوط في الزرابي، مما يبرز تملكهن

[8] يبحث السياح الأجانب، في بعض الأحيان، عن الأنواع القديمة، ويدفعون مبالغ هامة لاقتناء الزرابي القديمة، ومنهم من يطلب تحويل زربية جديدة إلى زربية قديمة. وتستعمل بعض المواد في عملية التحويل هذه، مثل "روح جافيل"، وماء، وممحاة [brosse] و[chalumeau]... وتُترك الزربية معرضة للشمس مدة أسبوع تقريبا". (المستجوب عقى، تاجر في منتجات الزربية بالخميسات).

للمعارف والخبرات في هذا المجال، وقدرتهن على تطوير معارفهن وتوظيفها وجعلها تواكب تطور اللغة الأمازيغية وتحولاتها.

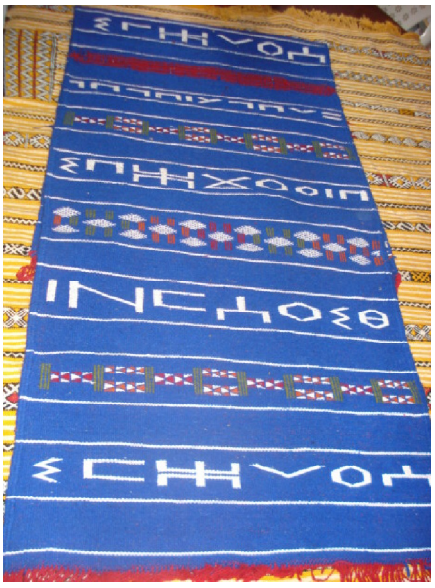

الصورتان رقم 4-5 : زربيتان زموريتان تضمان حروف "تيفيناغ"

وقد لوحظ، في بعض المحلات التجارية والأسواق الأسبوعية على الخصوص، وجود بعض أنواع الزرابي، المختلفة عن زرابي منطقة زمور، مثل زربية خنيفرة والصحراء، التي تنتج من أجل التسويق وتلبية طلبات الزبناء الراغبين في تنويع مشترياتهم.

الصورة رقم 6: زربية "دخيلة" على المنتوج المحلي بزمور

يتشبث العاملون في مجال الزربية بعدم وجود تأثير خارجي في ما يخص الرموز التعبيرية التي تتضمنها زرابي منطقة زمور، وأن الأنواع الخارجية التي تمت الإشارة إليها تستورد من طرف التجار لأهداف تسويقية[9]. وقد أثر حنبل وادي زم وأبي الجعد سلبا على الحنبل الزموري، حيث أخذت نساء المنطقتين نفس الرموز ونفس الشكل، وبدأن إنتاجه، كما قمن بتخفيض الأثمان وأغرقن السوق بالمنتوج[10].

الصورة رقم 7: زربية غير زمورية من إنتاج جمعية "تاگمات"

إن إنتاج الزرابي بزمور تقوم به أساسا نساء يتراوح سنهن بين 25 و50 سنة. وتتضاءل نسبة الشابات اللواتي يتعاطين هذه الحرفة، وهو ما يؤثر سلبا في انتقال المعارف والخبرات المحلية بين الأجيال.

2.1. مراحل الإنتاج

تعمل المرأة الزمورية على توفير مختلف الوسائل الضرورية لإنتاج الزرابي، من صوف وصباغة وخيوط...إلخ. كما يتم تحضير بعض أدوات العمل مثل "تاسكّا" ⵜⴰⵙⴽⴰ، وهي أداة يتم بها دك الصوف والخيوط أثناء نسج الزربية. أما "إسكسا" ⵙⴽⵙⴰ (أقرشال ⴰⵣⵓⵛⵎ)، فيستعمل في تحضير الصوف قبل تحويله إلى خيوط. كما تقوم النساجة بتهيئ عمودين ينصبان أفقيا وخشبتين مستطيلتين متوازيتين (إفگّاگن ⵉⴼⴳⴳⴰⴳⵏ)، وتملك أغلب الأسر بالبوادي وبالحواضر هذه الأدوات.

[9] المستجوب السيد موحى.

[10] بدأ هذا التأثير منذ حوالي عشر سنوات، حسب تصريح أحد العاملين في هذا المجال، وهو عضو بالغرفة التجارية بالخميسات.

الصورة رقم 8: "إفگاگن" ⵉⴼⴳⴰⴳⵏ (عارضتا المنسج)

تقوم المرأة بنسج الصوف "ثاظوط" ⵜⴰⵎⵓⵜ ب "أفرشال" ⴰⵎⴰⵔⵛⴰⵍ، وتحويلها إلى خيوط (الغزل) "أراف" ⴰⵔⴰⴼ يختلف حجمها حسب الحاجة، وتسمى هذه العملية بالأمازيغية "أللم" ⵍⵍⵎ. ثم تصبغ الكميات اللازمة بالألوان المراد تزيين الزربية أو الحنبل بها (إغمان ⵉⵖⵎⴰⵏ). وقد تقتني النساجة الخيوط جاهزة من السوق المحلي، إلا أن الأفضلية تكون لتهييئها حرصا على جودة المنتوج ومتانته.

تمر الزرابي التي تشرف الجمعيات على إنتاجها بنفس المراحل، فجمعية "تاگمات" مثلا تقوم باقتناء الصوف من تجار خواص وتحضيره لتزود به النساء اللواتي تتعامل معها. وقد تتكلف العاملات بغسله وغزله وصباغته وحياكته حسب حاجياتهن[11]. أما "جمعية الهلال للتنمية المستدامة"، فتقوم بشراء الصوف الخام وتزود به العاملات للتكفل بإعداده، ضمانا للجودة وحفاظا على الخصوصيات المحلية حسب قولهن.

ورغم هذا الحرص، تشتكي العاملات في الميدان من تراجع جودة بعض المواد مثل الخيوط والصباغة: **"ثاظوط أور إقيم غيرس لقيمة"** ⵜⴰⵎⵓⵜ ⵓ ⵉⵣⵣⵉⵎ ⵖⵉⵓⵓ **"ⵎⴰⵏⵉⴽ ⴷⴰⵜⴰⴼⵜ إغمان إقذيمن؟ غاس جابون واسا** أگ **قيمن"** ⵎⵓⵏⵉⵅ ⴰⵓ ⵜⴰⵀⵜ ⵉⵖⵎⴰⵏ ⵉⵣⴰⵅⵉⵏ ?, ⵖⴰⵓ ⵉⴰⵛⵛⵍ ⵍⴰⵓ ⴰ ⴰⵅ ⵉⵣⵣⵉⵎ (أين ستجد حاليا الصباغة القديمة؟ إن المواد اليابانية فقط هي التي تنتشر في الوقت الراهن)[13].

[11] رئيس جمعية "تاگمات للتنمية والتضامن" بالخميسات.

[12] المستجوب موحى.

[13] المستجوبة مودى.

الصورة رقم 9: سيدة تقوم بتحضير مادة الصوف "ثاظوط" ⵜⴰⵣⵓⵜ

تختلف المدة التي يكلفها إنتاج الزربية حسب حجمها، ومستوى تعقد الرموز التعبيرية التي تتضمنها، ومدى تفرغ العاملات لهذا النشاط. فأغلب النساء في البوادي يمارسن أعمالا أخرى، بينما تتفرغ بعض نساء الحواضر لهذه المهمة. ويتحكم هاجس الحاجة إلى المال في سرعة الإنتاج، بينما يتحكم هاجس الربح في جودة المنتوج[14].

بعد الانتهاء من النسج، يتم الاحتفاظ بالمنتوج إما للاستعمال الخاص، أو يقدم للتسويق سواء في بعض المحلات أو المركبات التجارية أوالأسواق الأسبوعية. وقد تصدر الأنواع الجيدة منه إلى مدن أخرى، مثل مراكش وفاس والرباط وطنجة، حيث تباع أساسا للأجانب.

2. العوامل المؤثرة في إنتاج الزرابي بزمور

1.2. عناصر التأثير المحلية

يتحدث العاملون في مجال إنتاج الزرابي في زمور عن الدور السلبي الذي يلعبه الوسطاء المحليون في التأثير على المنتوج، باستغلال العاملات في هذا المجال عن طريق احتكار عملية البيع والشراء، وفرض أثمان لا تتلاءم مع المال والجهد المستثمرين في الإنتاج، مما يقلص هامش الربح لدى المنتجات. ويقتني هؤلاء الوسطاء المنتوج مباشرة من العاملات ليتم تسويقه في أماكن أخرى داخل المغرب وخارجه. وقد راكم بعضهم ثروات مهمة جراء ذلك، وخاصة خلال الفترات التي عرفت فيها الزربية الزمورية إقبالا كبيرا.

إلى جانب الدور السلبي للوسطاء، يشتكي العاملون في هذا المجال من قلة المعارض المهتمة بالدعاية للزربية وتشجيع تسويقها وإنتاجها. مما يطرح السؤال حول دور العمل

[14] أكد لنا جل المستجوبين تأثر جودة المنتوج بارتفاع تكاليف الإنتاج وقلة الأرباح.

الجمعوي في هذا الميدان، حيث يلاحظ المنتجون أن الجمعيات لا تساهم في دعم المنتوج وتشجيعه، حيث لا يظهر بعضها إلا في المناسبات قصد الحصول على الدعم: **"كو يودج س أقرّو نّس"** ⵎⵓ ⵙⵓⵎⵎⴰⵡ ⵏ ⵜⵎⵓⵔⵜ ⵏ ⵜⵎⵓⵔⵜ ⵏⵏⵙ ⵉⵙ ⵜⵜⵡⵓⵔⵉ ⵏⵏⵙ , (يشتغل كل واحد لحسابه الخاص)[15]. غير أن بعض الجمعيات تقوم بمجهودات من أجل تشجيع النساء على الاشتغال في مجال إنتاج الزرابي، فجمعية "تاگمات" مثلا تعمل على توفير أدوات الإنتاج وتطوير قدرات النساء ومهاراتهن، خاصة في ميدان إدماج حرف تيفيناغ في الزربية ونقله إلى الأجيال المقبلة[16]. وتحاول الجمعية استهداف الأحياء الهشة داخل المدينة والإقليم، حيث تركز على الأسر التي تعلم أبناءها نسج الزربية والحنبل على الخصوص. وتشرف على مشروع يسمح بإدماج نساء يشتغلن في منازلهن، نظرا للصعوبات التي تواجههن جراء مغادرة البيت أوقات العمل. ويتم التفاوض معهن على ثمن المتر المربع[17]، حسب شكل الزربية والمواد المستعملة في إنتاجها والرموز التي تحملها. ويقترن ارتفاع الثمن بالجهد المبذول في بعض الأنواع الجيدة التي تتطلب وقتا أطول في الإنجاز وإلماما بمهارات ومعارف دقيقة. كما تطلب الجمعية أحيانا من النساء المشتغلات معها إنجاز أشكال معينة من الزرابي تلبية لحاجيات الزبناء، خاصة بعض الجمعيات والهيئات السياسية والثقافية[18].

كما تقوم "جمعية الهلال للتنمية المستدامة" بتعليم النساء والفتيات الخبرات والمعارف المرتبطة بالزرابي. وبلغ عدد المتعلمات 75 امرأة وطفلة، يشتغل بعضهن لحساب الجمعية وتعمل الأخريات لحسابهن الخاص، بينما يشد البعض الرحال نحو مدن توفر العمل في ميدان النسيج مثل طنجة[19]. ورغم هذه الجهود فإن العديد من الأسر تجد صعوبة في إقناع بناتها بجدوى وأهمية تعلم خبرة حياكة الزربية والحنبل[20].

وقد ساهم تكاثر عدد الجنود المتقاعدين، خلال السنوات الأخيرة، والممارسين لتجارة الزرابي في اشتداد المنافسة، مما أثر سلبا على الأثمان والأرباح[21]. كما أدى تناقص جودة

---

[15] المستجوب السيد عقى.

[16] بلغ عدد النساء اللائي يشتغلن مع الجمعية 25 في الأحياء الهامشية لمدينة الخميسات، و20 في المعازيز، و20 في جماعة مجمع الطلبة. (رئيس تعاونية "تاگمات").

[17] تبتدئ هذه الأثمنة –حسب ما صرح لنا به رئيس الجمعية– من 60 درهما للمتر، وقد يرتفع الثمن إلى 250 درهم.

[18] كما هو الشأن مثلا بالنسبة للزرابي التي تتضمن كلمات وجملا بالحرف الأمازيغي "تيفيناغ". وقد "جاءت فكرة إدخال هذا الحرف من داخل الجمعية. ويتم التفكير حاليا في إدخال الشعارات التي تحتاجها الجمعيات بالحرف الأمازيغي. وهي عملية تتطلب مهارات ومعارف متقدمة". (رئيس جمعية " تاگمات ").

[19] تقوم الجمعية بتعليم الفتيات مجانا، وهي تستفيد من أموال الدعم، حيث استفادت الجمعية مثلا من دعم مادي في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، كما استفادت من دعم المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

[20] تقول رئيسة "جمعية الهلال للتنمية المستدامة" بالخميسات: "**أور قيمن ميدن ران أزطا... قيمن غاس ثكسواثين، ثيمزيانين عاذ لانتماث أكيسن**" ⵜⵉⵎⵣⵢⴰⵏⵉⵏ ⵄⴰⴷ ⵍⴰⵏⵜⵎⴰⵜ ⴰⴽⵢⵙⵏ. ⵣⵓⵔ ⵎⵉⴷⵏ ⵔⴰⵏ ⴰⵣⵟⴰ... ⵇⵉⵎⵏ ⵖⴰⵙ ⵜⴽⵙⵡⴰⵜⵉⵏ، ⵜⵉⵎⵣⵢⴰⵏⵉⵏ ⵄⴰⴷ ⵍⴰⵏⵜⵎⴰⵜ ⴰⴽⵢⵙⵏ. (بدأ الناس يعرضون عن نسج الزرابي، لا يقوم بذلك إلا نساء متقدمات في السن، أما الصغيرات فنبذل جهدا كبيرا من أجل تعليمهن).

[21] المستجوب السيد موحى.

مواد الإنتاج التي غزت السوق إلى تناقص قيمة الزربية بالمنطقة، على الرغم من وجود إنتاج وإبداع في هذا المجال[22].

يشتكي العاملون في مجال إنتاج وتسويق منتوج الزرابي بالإقليم من عدم تقنين هذا القطاع، حيث يعاني من غياب المراقبة اللازمة، ومن سوء التنظيم. ويرى البعض بأن عملية المراقبة يجب أن تقوم بها الوزارة الوصية، كما يجب أن يكون هناك طابع محلي للزربية والحنبل. وقد طالب بعض الفاعلين المحليين بتنظيم مزاد علني (الدلالة) بشكل أسبوعي في المدينة، لكن لم تتم الاستجابة لهذا الطلب[23].

2.2. عناصر التأثير الخارجية

تأثرت الزربية بعوامل خارجية ترتبط أساسا بتسويق المنتوج، فكان التجار والوسطاء والسياح الأجانب يقتنون حاجياتهم من الزرابي مباشرة من أسواق الإقليم. ونتيجة لعوامل مختلفة أصبح المنتوج ينقل ليسوق خارج الإقليم وفي مدن مثل مراكش، مما قلص هامش الربح لدى العاملات، حيث انضافت مصاريف النقل والتنقل إلى غلاء مواد الإنتاج، واحتكار الوسطاء للسوق[24].

وقد أدّى إنشاء الطريق السيار الرابط بين الرباط وفاس، إلى تفاقم الوضع، مما زاد في تهميش أسواق الإقليم عامة وتجار مدينة الخميسات خاصة، حيث تقلص عدد الوافدين على هذه الأخيرة: **"ما بقاوش الناس كيجيو لبلاد"**[25]. الأمر الذي أثر سلبا على إنتاج وتسويق الزربية والحنبل الزموريين محليا[26].

ونتج عن تسويق الزربية الزمورية في مناطق أخرى تعرض هذه الأخيرة إلى ما يصطلح عليه ب "القرصنة"، حيث تم إنتاج زرابي شبيهة بالزرابي الزمورية في مناطق أخرى مثل

---

[22] عضو بالغرفة التجارية.

[23] يتجلى الطابع المحلي في وضع اسم زمور أو اسم الإقليم أو اسم الصانعة على المنتوج. (عضو بالغرفة التجارية).

[24] تقول السيدة مودى في هذا المجال: "من قبل كان الإقبال كبيرا على الزربية الزمورية، حيث يأتي المشترون إلى منازلنا الخاصة، ولا نكلف أنفسنا عناء الذهاب إلى السوق. كان هؤلاء يعرفون جودة الزرابي، ويقصدون أصحابها في دورهم عوض التوجه إلى السوق الذي يصعب فيه أحيانا التمييز بين الجيد والرديئ. وفي بعض الحالات يلح بعض الزبناء على اقتناء أنواع جيدة من الزرابي والحنابل بأثمان مناسبة، إما للاستعمال الخاص أو من أجل تسويقها في أماكن أخرى وبثمن أكبر". (بتصرف).

[25] عضو بالغرفة التجارية بالخميسات.

[26] أجمع مختلف الفاعلين المحليين على أن المنطقة تعاني من تهميش كبير، ساهم فيه موقعها بين مدينتين كبيرتين ومحاذاتها للطريق السيار، وتنكر أبنائها، خاصة الفاعلين منهم في المجال السياسي، لمنطقة زمور. ويصل الأمر أحيانا إلى حد اتهام المسؤولين المحليين بالمساهمة أيضا في تهميش المنطقة، بالنظر إلى عدم بذل مجهودات كبيرة في مجال التعريف بها، وغلبة المصالح الخاصة على المصالح العامة لساكنة زمور، بما فيها المصالح المرتبطة بالزربية والعاملين فيها.

أبي الجعد ووادي زم[27]. بالإضافة إلى منافسة الزربيتين التركية والبلجيكية اللتين تلقيان إقبالا كبيرا على مستوى الحواضر[28].

وتأثر إنتاج الزرابي أيضا بمشكل التسويق وقلة عدد أيام المعارض. فالنساء العاملات في هذا المجال يعانين من مشكل ترويج وبيع منتوجهن، ويكن ضحية الوسطاء والسماسرة. وقد أجمع كل العاملين والفاعلين المحليين في مجال الزربية بمنطقة زمور، نساء وتجارا ووسطاء وفاعلين جمعويين، على ضرورة الإكثار من عدد أيام المعارض –القليلة في نظرهم- والتي بإمكانها أن تساهم في تسويق المنتوج والتعريف به، على أن تنظم هذه المعارض على المستويين المحلي والوطني.

ويشتكي مختلف العاملين والفاعلين المحليين في هذا المجال من غياب الدعم والتشجيع، خاصة من طرف الدولة، في شخص وزارة الصناعة التقليدية. ويفسر هذا الغياب في نظرهم بعدم تشجيعهم ماديا ومعنويا على تطوير المنتوج، وعدم الاهتمام بالمشاكل التي تواجههم، والتمييز الذي يتعرض له بعضهم: **"ديما حاگرينا"**[29]، ومحدودية المعارض التي تقام في هذا المجال. إضافة إلى غياب الدعاية اللازمة لمنتوج الزرابي وطنيا ودوليا، ولا يتم تحيين المعطيات الواردة في موقع الإقليم على الأنترنيت، خاصة ما تعلق منها بالزرابي وخصوصياتها وأهميتها وحاجتها إلى المساعدة والدعم.

وزاد من تفاقم الوضع الأزمة العالمية التي ظهرت في السنوات الأخيرة، والتي أدت إلى تناقص الإقبال على منتوج الزرابي. وقد تأثر مختلف العاملين في هذا المجال بهذه الأزمة، بسبب تناقص إقبال الأجانب على شراء الزرابي المغربية بشكل عام.

3. إنتاج الزرابي والتنمية المحلية

1.3. فترات الازدهار

لعبت الزرابي، باعتبارها إنتاجا نفعيا، دورا كبيرا في التنمية المحلية بمنطقة زمور، حيث كانت مصدر رزق العديد من الأسر، خاصة خلال فترات كان فيها الإقبال كثيفا على المنتوج، كما كانت الأثمنة ترضي البائع وتحفزه على الاشتغال في هذا المجال. وهذا ما شجع على تلقي الخبرات والمعارف المرتبطة بالزرابي وتطويرها، وجعلها تواكب متطلبات السوق واحتياجات الزبناء.

جعل هذا الوضع فئات عريضة من سكان منطقة زمور تشتغل في هذا المجال، خاصة في العالم القروي، وجعلت منه بعض الأسر التي هاجرت من البادية إلى المدينة مصدرا

[27] ذلك ما صرح لنا به بعض العاملين في مجال الزرابي بمنطقة زمور.

[28] تستفيد هذه الزرابي من رواج بعض الأفكار التي تقول بأن بعض مواد الزرابي المنتجة محليا تساهم في انتشار مرض الحساسية.

[29] تاجر ورئيس تعاونية "إيمازيغن للزربية والحنبل" بالخميسات.

لتوفير مداخيل تساعد على مواجهة تكاليف العيش[30]. وقد أكد جل المستجوبين الأهمية التي كانت تلعبها الزربية في التنمية المحلية بزمور. ولخصت إحدى السيدات الوضع بقولها: **"نعيش نكني نسعيش أراو نخ** "ⵅⵍⵍ ⵔⵓⵍ ⵓⵎⵓⵍ ⵜⵜⵓⵔⵉⵖ ⵏⵉⵖⵔ**، (كنا نحصل على قوت عيش لنا ولأولادنا)[31]. وفي العالم القروي كانت النساء اللائي يتقن الخبرات والمعارف المرتبطة بالزرابي يتمتعن بحظوة كبيرة في الزراج (رمز "الحداگة")، فالحرفة تساعد على التغلب على أزمات العمل الفلاحي: **''تاحال ثازربيث كم أور ثغني بنادم لازيگس يتعيش... نكني لا نعيش زيكس ها نكني لانسول**" ⵜⵓⵎⵙⵙⵓⵜ ⵜⵓⵣⵡⵓⵖⵜ ⵅⵔ ⵙⵓ ⵜⵢⵍⵉ ⵓⵍⵓⵎⵔ ⵜⵓⵎⵙⵙⵓⵜ. ⵔⵓⵍⵉ ⵎⵎⵓ ⵍⵜⵉⵔⵉ ⵣⵣⵉⵅⵓ ⵙⵓ ⵔⵓⵍⵉ ⵎⵎⵓ ⵍⵓⵙⵎ**،** (كانت الزربية تساعد الإنسان على الحصول على مورد للعيش... منها كنا ولا زلنا نحصل على أموال مساعدة على مواجهة تكاليف الحياة)[32].

2.3. بوادر الأزمة

عن مدى استجابة إنتاج وبيع الزرابي لتحقيق الحاجيات العائلية، لخص لنا أحد المشتغلين في الميدان الوضع الراهن بقوله: **''إيوا نتشا أغروم!''** ⵔⵍⵍⵓ ⵍⵜⵛⵓ ⵓⵢⵓⵙⵔ، (لا يمكن أن نأكل منها خبزا!)[33]. أحيانا لا يتم بيع أكثر من زربية أو حنبل واحد في الشهر، وبهامش محدود من الربح. وبالتالي أصبح من الصعب جدا الاعتماد على الزرابي وحدها لمواجهة تكاليف الحياة، فالبحث عن مصادر دخل إضافية أصبح ضروريا. هذا الوضع عبر عنه مستجوب آخر بقوله: **''رب أذيگ تاويل** "ⵙⵙⵓⵍⵉⵣⵙ ⵓⵏ ⵔⵅ ⵜⵜⵓⵍⵉⵣⵙ**، (يفعل الله خيرا)[34].**

لقد تغيرت أحوال صناعة الزرابي بالمنطقة، وبدت علامات التذمر والإحباط والخوف من المستقبل على العاملين في هذا المجال. بل تحدث البعض عن "الانقراض" الذي يهدد الزربية[35]. وحدد البعض سقفا زمنيا لأفول نجمها: **''لوقث كوتدو تناقاص''** ⵙⵍⵍⵎⵜ ⵅⵙ ⵜⵏⵏⵙ ⵜⵓⵎⵣⵓⵙ**، (مع مرور الوقت يتناقص الإقبال على الزرابي)[36]. ''لوقث شاور ثقيم ماكا ثلا''** ⵙⵍⵍⵎⵜ ⵛⵓ ⵙⵓ ⵜⵎⵎⵔⵉⵔ ⵔⵓⵅⵓ ⵜⵙⵙⵓ**، (لم يعد الوضع كما كان من قبل)[37]. ''أور إقيم ماكَ تعلامن، واسا المدرسة''** ⵙⵓ ⵉⵎⵎⵔⵉⵔ ⵔⵓⵅ ⵜⵃⵙⵙⵓⵔⵍ, ⵍⵓⵙⵓ

[30] حسب رئيس جمعية "تاگمات"، ساعدت الجمعية العديد من الحالات الاجتماعية الصعبة، مثل بعض النساء الأرامل أو المطلقات. واكتست معظم أنشطتها صبغة اجتماعية.

[31] السيدة عائشة، مطلقة وأم لمجازين.

[32] السيدة مودى.

[33] المستجوب موحى.

[34] كما جاء على لسان أحد المشتغلين في مجال الزربية رفقة زوجته، مولاي علي.

[35] رئيس تعاونية "إيمازيغن للزربية والحنبل" بالخميسات.

[36] المستجوب عقى، تاجر بالخميسات.

[37] المستجوبة السيدة فاظمة.

.ⵍⵎⵄⵇⵓⵔ، (لم يعد أحد يتعلم صناعة الزرابي، حاليا يتجه الكل إلى المدرسة)[38]. **''نكني بحرا نسن دونيث ندا غر لمعمل، واسا ثاربات إخساس أتقرا''** ⵍⵣⵍⵉ, ⵖⵅⵓⵓ ⵍⵓⵓⵍ .ⵄⵄⵙⵍⵉⵜ, ⵍⵄⵄⵓ ⵢⵔ ⵍⵎⵄⵀⵄⵍⵎ. ⵍⵓⵓⵓ ⵜⵓⵔⵖⵓⵜ ⵋⵅⵓⵓ ⵓⵓ ⵓ ⵜⵣⵔⵓ. "ⵄⵄⵙⵍⵉⵋⵜ, (نحن، بمجرد أن عرفنا الدنيا ذهبنا إلى المعمل، حاليا الفتاة يجب أن تدرس)[39]. **''ما بقاوش الناس بغاو إيخدمو الزربية''**[40] (لم يعد الناس يرغبون في العمل في مجال الزرابي). فالمنتوج يحتضر، ويجب البحث عن حلول جذرية، مثل دعم المواد الأولية.

تتم عملية البيع للخواص والوسطاء والتجار، ولم تعد الأثمنة ترضي المنتجات، وتفرض الحاجة أحيانا البحث عن هامش ضعيف للربح، دون اعتبار مدة الإنجاز والجهد المبذول: **''هالعار آد فوكاخ''** ⵅⵅⵙⵣⵓⵅ ⵓⵄ ⵓⵀⵓⵔ، (أبحث فقط عن التخلص من الزربية)[41]، – **''ريخ آذ بدلخ لفلوس''** ⵔⵋⵅ ⵓⵄ ⵖⵄⵄⵍⵍⵅ ⵍⵅⵍⵔⵔ، (أضطر أحيانا إلى الحصول على النقود التي أنفقتها دون الحصول على أي ربح)[42]، - **''ثوحل لوقث''** ⵜⵍⵓⵄⵍ ⵍⵍⵓⵣⵜ، (يعاني الوضع الراهن من ركود كبير)[43]. إنها جمل معبرة عن واقع الحال، ومعاناة المنتجين، وخوفهم من المستقبل.

دفع هذا الوضع العديد من فتيات المنطقة إلى البحث عن العمل في مدن أخرى، مثل طنجة، فمنطقة زمور لا تتوفر على معامل للتكوين. وبالتالي أصبح هناك تصدير لخبرات ومعارف وكفاءات المنطقة في اتجاه مدن ومناطق أخرى.

من الصور المؤثرة حقا أن نجد نساءً يمتلكن خبرات ومهارات ومعارف ذات جودة عالية، ويقمن بإنتاج أنواع متميزة من الزرابي والحنابل، تثير الانتباه وتزين فضاءات العديد من حفلات الأعراس والمواسم وأنشطة بعض الجمعيات والهيئات. إلاّ أنهن يعشن في هوامش المدينة أو في البادية، ويعانين من الفقر، في الوقت الذي راكم فيه بعض الوسطاء ثروات مهمة.

كثرت المبررات التي أدت في نظر مختلف الفاعلين إلى الأزمة التي تعاني منها الزربية الزمورية، كما تعددت الدلائل حول الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية لهذا الوضع على أحوال المشتغلات والعاملين في هذا المجال، وركزت في مجملها على ارتفاع أثمان مختلف

---

[38] المستجوبة السيدة يامنة.

[39] رئيسة جمعية الهلال للتنمية المستدامة.

[40] تاجر ورئيس تعاونية "إيمازيغن للزربية والحنبل".

[41] المستجوبة السيدة فاظمة.

[42] السيدة مودى.

[43] في الاستجواب الذي قمنا به مع السيدة يامنة التي تشتغل في مجال الزرابي يوم الثلاثاء، الذي هو يوم السوق الأسبوعي بالخميسات، صرحت لنا بأنها حصلت فقط على 50 درهما كهامش للربح، دفعتها في نفقات التنقل: "**ديخد بلاش**" ⵛⵓⵀⵓⵛ ⵏ ⵅⵅⵣⵅ ⵏ ⵄⵀⵓⵛ (عدت خاوية الوفاض)، وتضيف بأنها استيقظت منذ الرابعة صباحا ولم تتمكن من الحصول حتى على ثمن إفطارها.

المواد المستعملة في إنتاج الزرابي، وقلة جودتها، وانخفاض أثمان الزرابي، مما أدى إلى تقلص هامش الربح بشكل كبير: **"ⵜⵉⵖⵉⵔⴰⴷ ⵍⵍⵀ ⵢⵙⴰⵎⵃ"** [44]. ويلعب الوسطاء دورا سلبيا في هذه العملية عن طريق الاحتكار وفرض أثمان لا تتلاءم مع الجهد المبذول وتكاليف الإنتاج. مما جعلهم يراكمون أموالا طائلة بينما يتفاقم فقر المنتجين[45].

يصطدم الاتجاه المتشائم بتفاؤل بعض العاملين في هذا المجال[46]، بالنظر إلى الإقبال الذي مازال قائما على المنتوج، وتشبث البعض باقتناء الزرابي المغربية عوض الزرابي المستوردة، واستمرار انتقال الخبرات والمعارف إلى بعض الشابات، على قلة عددهن، خاصة بتشجيع بعض الجمعيات العاملة في مجال الصناعة التقليدية عموما والزربية خصوصا، وغيرة العديد من الفاعلين المحليين على منطقتهم ومؤهلاتها، واستمرار النساء في الاشتغال في هذا المجال رغم كل الإكراهات والعوائق.

خاتمة

رغم الصعوبات التي تواجه الخبرات والمعارف المرتبطة بالزربية الزمورية، وتأثرها بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، المحلية والوطنية والدولية، نجد أنفسنا أمام خبرات ومعارف ومهارات أصيلة، استطاعت أن تصمد وتتكيف مع متطلبات السوق. غير أن التحولات السريعة التي عرفها المجتمع أثرت بشكل كبير في العديد من الخبرات والمعارف المحلية، مما أفرز حالة من التشاؤم والخوف على مستقبل الزربية الزمورية والعاملين بها.

يكاد يجمع مختلف العاملين في هذا الميدان على ضرورة التدخل من أجل دعم الزربية الزمورية وإنقاذها من "الانقراض"، عن طريق التحسيس بالمخاطر التي تهددها، وخلق مراكز للتكوين تساعد على استمرار وانتقال الخبرات والمعارف المرتبطة بها، وإدراج الصناعة التقليدية بصفة عامة والزربية والحنبل بصفة خاصة ضمن برامج التكوين المهني والمقررات الدراسية، وتقنين المضاربات المرتبطة بتسويقها والتعريف بها، ودعم الجمعيات التي تقدم المشاريع الهادفة إلى حماية الزربية والمعارف والخبرات المرتبطة بها، وضرورة تدخل مختلف الفاعلين على المستوى المركزي والمحلي من أجل دعم الابتكار والإبداع وتشجيع صناعة تقليدية أصيلة.

---

[44] المستجوب موحى. ويستفاد من عبارته أن المنتجة لا تقوم باحتساب الجهد الكبير المبذول في إنتاج الزرابي، بل يتم البحث فقط عن هامش صغير للربح. وعبارة "الله يسامح" هنا تعبر عن الامتعاض الذي يحس به البائع عندما لا تكون أمامه خيارات أخرى لتسويق منتوجه بثمن مناسب.

[45] المستجوب مولاي علي.

[46] يذهب رئيس جمعية "تاگمات"، مثلا، عكس الاتجاه الذي يقول بأن الزربية الزمورية في طريق الانقراض، ويؤكد بأن القيام ببحث ميداني والوقوف عند مجموعة من المؤشرات يوضح بأن للزربية مستقبلا كبيرا.

البيبلوغرافيا

بالعربية

رحمة بورقية (1991)، *الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقات الدولة بالقبائل في المغرب*، دار الطليعة، بيروت.

أحمد بوبية (2003)، قبائل زمور والحركة الوطنية، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى.

بالفرنسية

Amahan, A. (2011), « Le tapis », in *Arts et architecture amazighes au Maroc*, Casablanca, Editions La Croisée des Chemins, p. 119-147.

Damgaard, F. (2008), *Tapis et tissages. L'art des femmes berbères au Maroc*, Casablanca, Editions La Croisée des Chemins.

Flint, B. (2008), « Marrakech – Imilchil – Tinghir – Moyen Atlas – H. Atlas Oriental », Marrakech, *Cahiers d'Arts Saharien et Amazigh*, Numéro spécial, p. 9-227.

La Bastide, H. de (1952), *Où en est l'évolution rurale au Maroc. Enquête en pays Zemmour*, Paris, Mémoire du C.H.E.A.M.

Lesne, M. (1959), *Évolution d'un groupement berbère : les Zemmour*, Rabat, Ecole du Livre.

Lesne, M. (1966-67), *Les Zemmour. Essai d'histoire tribale*, Aix-en-Provence, Extrait de la Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n° 2, 3 et 4.

Mission scientifique du Maroc, (1920), « Zemmour », in *Villes et tribus du Maroc*, T. III, Paris, Leroux, p. 176-246.

Querleux, (1915), « Les Zemmour », *Archives berbères*, vol. I, fasc. 2, Paris, Leroux, p. 12-61.

Vandenbrock, P. (2000), *Aztta. L'art des femmes berbères, Amsterdam*, LUDION/Flammarion.